المعارضة والإصلاح
في فكر فاطمة الزهراء عليها السلام

الشيخ
ليث عبد الحسين العتابي
مركز الفكر الإسلامي المعاصر ـ النجف الأشرف

المعارضة والإصلاح في فكر فاطمة الزهراء عليها السلام

الشيخ
ليث عبد الحسين العتابي
مركز الفكر الإسلامي المعاصر ـ النجف الأشرف

المقدمة:ـ

لا يمكن لنا أن نلتمس من التراث الفكري الإسلامي نصاً مقدساً غير قابل للتأويل ولا خاضع للمساومة والاستغفال غير القرآن الكريم والسنة الشريفة، وما عداهما فهو دون ذلك خاضع للنقد والتحليل والاجتهاد والتأويل.

لابد أن نشير إلى مكانة أهل البيت عليهم السلام في التراث الفكري الإسلامي كونهم عدل القرآن والثقل الثاني وتراجمة الوحي وأساس الدين وقادة المسلمين، وكل هذا يعني أن كلامهم حجة علينا، ومن الواجب على جميع المسلمين طاعتهم واتباعهم بنص القرآن ووصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وهنا نقف مع نموذج صادق وحقيقي للتربية الإسلامية للفرد المسلم بشكل عام، وللمرأة المسلمة بشكل خاص.

نقف مع فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين، مثال المرأة المسلمة، والنموذج الإنساني الخلاق، والمثال الصادق للتربية الإسلامية الحقيقية.

فقد شرّع الإسلام أحكاماً وقوانين، ووضع مناهج متكاملة لإعداد المرأة المسلمة والمؤمنة، وللرقي بها وبتربيتها وتعليمها ورفع مكانتها وحفظ مصالحها ورعاية شؤونها وبناء كيانها، لتكون المثال الصادق والنموذج الإنساني الصادق والمعبر عن حقيقة المرأة.

وهنا يأتي نموذج الزهراء عليها السلام ليمثل بصدق حال نساء صدر الإسلام،

وربيبات بيت الوحي والنبوة، لتكون دراسة نوجه النظر فيها إلى جانب مهم من جوانب حياة فاطمة الزهراء عليها السلام ألا وهو جانب المعارضة والإصلاح، وننوه إلى ما في البحث من صعوبة كبيرة وبالخصوص لما يختص بعمرها القصير عليها السلام، وقلة الدراسات المختصة عنها والتي تناولت الجانب الإصلاحي وفكر المعارضة.

لذا نرجوا من الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى أن نقف على هذا الجانب المهم إنه نعم المولى ونعم النصير. **والحمد لله رب العالمين**

دور أهل البيت عليهم السلام في بناء الفرد المسلم

من المعلوم أن دور أهل البيت عليهم السلام هو بناء الفرد المسلم بناءً إنسانياً وإيمانياً وأخلاقياً وعقائدياً، من خلال القول والفعل والتقرير أو الإقرار.

فلقد اعتنى أهل البيت عليهم السلام بتربية وتعليم أتباعهم وأصحابهم وتلامذتهم التربية والتعليم الصحيحة المجسدة للتعاليم الإسلامية مفهوماً وواقعاً، من خلال تربية الفرد المسلم وفق تعاليم كتاب الله تعالى وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حتى يكون هذا الفرد النموذج الحقيقي لهذه التعاليم، وليكون محصناً ضد عوامل التخريب والانحراف، وليكون مهيئاً للقيام بالتغيير والإصلاح متى ما اقتضت الضرورة لذلك.

فنشاهد هذه الحقيقة جلية وواضحة في سلوكهم عليهم السلام، ونجده أيضاً جلياً في وصاياهم وكلماتهم وأحاديثهم وتصرفاتهم لتكون الدستور الذي يسير عليه أصحابهم ومحبوهم ومتبعوهم في كل زمان ومكان.

فنجد الأمام الباقر عليه السلام يقول: ((والله ما معنا من الله براءة، وما بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجة، ولا يتُقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً نفعته ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لم تنفعه ولايتنا))[1].

أهل البيت عليهم السلام وبناء فكر المعارضة والإصلاح :ـ

إن القارئ لفكر أهل البيت عليهم السلام والباحث في كفاحهم العملي والديني والسياسي سواء أكان الظاهر منه أم الخفي على مدى حياتهم عليهم السلام وحتى زمان الغيبة الكبرى نجده يتركز في أمور مهمة ورئيسية هي:

١- بناء الأمة البناء الديني والعقائدي والأخلاقي الرصين.

٢- تربية الأمة على نبذ الظلم ومقاومة الظلمة.

٣- تربية الأمة على أهمية إقامة العدل والسعي إلى إقراره ونشره والعمل به.

٤- تربية الأمة على أسلوب المقاطعة حين تعجز الأساليب الأخرى.

٥- تربية الأمة على الثورة حين توفر الظروف المناسبة وحين تحين ساعة حفظ الدين والدفاع عن بيضة الإسلام ضد أعدائه من الداخل والخارج.

٦- أسلوب المعارضة الفكرية والسياسية وتبيين حقيقة الظلمة ومواطن الظلم ورفع شعار الإصلاح.

وهنا لابد لنا أن نقف مع هذا المورد المهم، فللمقاومة الفكرية والسياسية الدور المهم في حياة الأمة الإسلامية، فكلما ظهر حاكم ظالم ومغتصب ومجانب لتعاليم الإسلام، كان لابد من مقاومته ومقارعته، وهذا جلي وواضح للمتتبع لسيرة أهل البيت عليهم السلام من أولهم حتى أخرهم.

المعارضة والإصلاح في فكر الزهراء عليها السلام

لقد خاضت السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام بقيادة بعلها علي بن أبي طالب عليه السلام بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله سبيلاً معتدلاً في معارضة السلطة الحاكمة

آنذاك بما يحفظ بيضة الإسلام ويصون المسلمين، فعزما عليهما السلام أن يخوضا معركة ومواجهة واسعة ومريرة لكن بهدوء وحكمة وروية تؤدي إلى الحفاظ على الإسلام لكي لا تنهدم أركانه وتتداعى أسسه، فكانت المواجهة على مراحل:-

١- مرحلة التذكير بالحق الطبيعي لآل البيت عليهم السلام والموقع الحقيقي لهم في الكيان الإسلامي:

فقد أخذ الأمام علي وفاطمة الزهراء بيد الحسن والحسين عليهم السلام جميعاً وطافوا على بيوت المدينة ورجالها وأشرافها داعين إلى نصرتهم مذكرين بوصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بحقه[٢]، وقد استطاعوا عليهم السلام أن يكسبوا من خلال تلك الحملة الإعلامية والتذكيرية ثلة من المناصرين التي أثرت فيهم الحقيقة وهداهم الله إلى سواء السبيل.

وكانت هذه المرحلة هي المرحلة الأولى من إعلان المعارضة للحاكم المتمثل في ذلك الوقت بشخص أبي بكر.

٢- رفض البيعة وعدم المبايعة:

فقد رفض الأمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام المبايعة للحاكم، وأعلنوا سخطهم على النظام الحاكم والمتسلط والغاصب والمخالف لحق أهل البيت عليهم السلام، فقد خالف الحق الشرعي والوصية الشرعية والاختيار الإلهي، وقد أعلن أهل البيت عليهم السلام متمثلين بالأمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام المقاطعة للحكومة وكل مظاهرها.

٣- المواجهة:

فبعد أن قام الطغاة باقتحام البيت النبوي المطهر، واقتيادهم لأمير المؤمنين عليه السلام جبراً وغصباً، فما كان من الزهراء عليها السلام إلا أن تقوم بنصرة الحق، وتدافع عن زوجها ووصي النبي صلى الله عليه وآله والإمام المفترض الطاعة وعن الإسلام،

فخرجت على أثره كسيرة الضله منهكة الجسد لاحقة لهم إلى المسجد النبوي قائلة: ((خلو عن ابن عمي، فوالذي بعث محمداً بالحق لئن لم تخلوا عنه لأنشرن شعري ولأضعن قميص رسول الله صلى الله عليه وآله على رأسي ولأصرخن إلى الله))[٣].

فكادت عليها السلام أن تقلب نظام الحكم يومئذ.

٤- التصدي للمغتصبين والمناداة بالحق علناً:

وذلك من خلال المطالبة بالحقوق الخاصة لأهل البيت عليهم السلام، وبالخصوص (فدك)؛ وفدك: قرية تبعد عن المدينة فراسخ عدة، كان فيها زرع وبساتين لليهود، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من خيبر قذف الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوب أهل (فدك)، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحوه على النصف منها، فقبل منهم ذلك، فكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله[٤] لأنه صلى الله عليه وآله لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، فكان صلى الله عليه وآله يقسم منافعها في بني هاشم، وفقراء المدينة ومساكينهم، فلما نزلت الآية الشريفة: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ **الأسراء ٢٦.**

أو امتثل النبي صلى الله عليه وآله أمر الله وأعطى فدكاً لفاطمة الزهراء عليها السلام، وقد وردت في ذلك روايات عدة منها:

عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا فاطمة لك فدك[٥].

وعن عطية قال: لما نزلت ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فأعطاها فدكاً[٦].

البلاغة في مواجهة أسلحة الطغيان:-

كان للزهراء عليها السلام أسلوب آخر في إعلان معارضتها للسلطة الحاكمة،

والمطالبة بالعدل والإصلاح، والدعوة لتقويم نظام الحكم، والإشارة الصريحة لأخطائه وذلك عن طريق الخطب التي ألقتها، وهنا نشير إلى مضامين مهمة في خطب وكلمات الزهراء عليها السلام:

١- التعريف بمكانتها من الإسلام والمسلمين:

إذ قالت عليها السلام: ((... وأشهد أن أبي محمد صلى الله عليه وآله عبده ورسوله...))(٧).

فهي أشارة جلية وواضحة إلى أنها بنت النبي صلى الله عليه وآله، ولها المكانة العالية، وعلى الكل الاعتراف بهذه المكانة، وإطاعة وصية النبي صلى الله عليه وآله بحقها وبحق أهل بيتها عليهم السلام، وعدم المخالفة في ذلك.

وقولها عليها السلام: ((... اعلموا أني فاطمة وأبي محمد صلى الله عليه وآله...))(٨).

٢- التعريف بمكانة الإمام علي عليه السلام من الإسلام والمسلمين:

((... كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أونجم قرن الشيطان، أوفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مستمراً ناصحاً مجداً كادحاً لاتأخذه في الله لومة لائم...))(٩).

٣- التعريف بمكانة أهل البيت عليهم السلام من المنظومة الإسلامية:

إذ قالت عليها السلام: ((... فجعل الله... العدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفرقة...))(١٠).

٤- التعريض بمغتصبي الخلافة ومجابهتهم وبيان صريح مخالفتهم للشرع:

((... ثم أخذتم تورون وقدتها وتهيجون جمرتها وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي صلى الله عليه وآله

الصفي...))[١١].

و((... وأنتم الأن تزعمون أن لا أرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون...))[١٢].

و((... أأغلب على أرثي ! يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريا، أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم...))[١٣].

و((... أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي...))[١٤].

سلاح الصمت:ـ

إن لسلاح الاعتصام الأثر الكبير والمؤثر أكثر بكثير من سلاح الكلام في بعض الأحيان، لذا فقد استمرت فاطمة الزهراء عليها السلام بجهادها ومعارضتها للسلطة الحاكمة، واختارت في آخر حياتها سلاح الصمت والاعتصام عن الكلام مع السلطة الحاكمة المتمثلة بأبي بكر، إذ أعلنت أمام الملأ وقالت: ((والله لا أكلمك بكلمة ما حييت))[١٥].

وكان لهذا الإجراء الأثر الكبير على الحاكم والحكومة في ذلك الوقت، إذ ليست الزهراء عليها السلام من سواد الناس، ولا بالفرد العادي، فهي القائل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله بإجماع المسلمين: ((إن الله ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك))[١٦].

وبقيت على ذلك إلى شهادتها عليها السلام وإلتحاقها بالرفيق الأعلى، لتبعث برسالة إلى الأمة الإسلامية، ولتوجه صفعة مؤلمة لنظام الحكم المستبد، ولتعطينا درساً، بل هو درس للأجيال.

هوامش البحث

(١) مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص ٣٩.

(٢) الإمامة والسياسة، الدينوري، ج ١، ص ١٢.

(٣) البحار، المجلسي، ج ٤٣، ص ٤٧.

(٤) شرح نهج البلاغة، أبن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٢١٠.

(٥) كشف الغمة، الأربلي، ج ٢، ص ١٥٢ / الدر المنثور، السيوطي، ج ٤، ص ١٧٧.

(٦) المصدر السابق.

(٧) الإحتجاج، الطبرسي، ج ١، ص ١٣١-١٤١.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) المصدر السابق.

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) كشف الغمة، الأربلي، ج ٢، ص ١٠٣.

(١٦) كشف الغمة، الأربلي، ج ٢، ص ٨٤.